عوامل وأسباب سقوط الدولة السنارية في السودان 1504 - 1821م (دراسة تاريخية تحليليه)

د. أسماء موسى عبد الله سعد

قسم التاريخ - كلية العلوم الإنسانية
جامعة الملك خالد - المملكة العربية السعودية.

المستخلص:

تتناول هذه الدراسة الأسباب والعوامل التي أدت إلى سقوط سلطنة سنار أول وأكبر الممالك الإسلامية في السودان والتي شكل ظهوره نموذجاً مهما في رفع رأيه الإسلام والحفاظ على الموروث الحضاري الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية. كان قيامها في مطلع القرن السادس عشر الميلادي (1504م -1821م) نتيجة للتحالف بين الفونج بزعامة عمارة دنقس زعيم الفونج وعبد الله جماع وتتمثل أهميتها في ذلك الدور الرائد الذي قامت به في تاريخ السودان في نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلاميةبلاضافة الى الأهمية الجغرافية السياسية والاقتصادية والاجتماعية فجاء هذا البحث لتوضيح هذه الأهمية ومعرفة أهم العوامل التي أدت الى سقوطها حيث استمر حكمها أكثر من ثلاثة قرون ولكنها خلال هذه الفترة لم يكن حكماً مستقراً فكان نفوذها في تضاؤل مستمر ... أدى في النهاية إلى ضعفها وسقوطها وبالتالي لم يكن سقوطها مفاجئاً وإنما كانت هناك عوامل وأسباب أدت إلى ذلك تمثلت في أسباب سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية فتضافرت كل تلك الأسبابمما أدى إلى تفكك وحدة الدولة ومن ثم سقوطها على أيدي جيوش إسماعيل باشا الذي دخل سنار في يونيو 1821م ظافراً دون أدنى مقاومة معلناً نهاية أكبر وأعظم الممالك الإسلامية في تاريخ السودان والوسيط.المنهج الذي اتبعته هو المنهج التاريخي التحليلي والوصفي أي محاولة مناقشة وتحليل وتقويم مشكلة الدراسة من خلال جمع المعلومات من مصادرها الأصليةتوصلت الدراسة الى عدة نتائج أهمها إن النزاع الحروب الداخلية والخارجية بلاضافة الى النزاع والصراع حول السلطة بين الأحفاد أدى الى قيام حروب أهلية ومن ثم ضعف سياسة الحكم كما أدى تدهور الأوضاع الاقتصادية الى انتكاس التجارة الداخلية والخارجية كما ضعفت مكانة رجال الدين .

Abstact:

This study investigates the causes and factors that led to the fall of the Funj Sultanate (also known as Sultanate of Sinner), the first and largest Islamic kingdoms in the Sudan, whose appearance constituted an important model in raising the status of Islam and preserving the Islamic cultural heritage and the Arab-Islamic culture. It was established at the beginning of the sixteenth century (1504 -1821 AD) as a result of this alliance between the Funj chaired by AMARA DUNQAS the leader of the Funj and ABDALLAH JAMMA the leader of Al-Abdala and resulted in the leading role played by this authority in the history of Sudan in all fields as its borders extended from Swakin east to the White Nile to the west and from the Abyssinian Plateau south to Al Shalala Al Thales to the north, the kings of Fung and the sheikhs of Al-Abdala shared the kingdom's influence.In the historical sources, it is known for several names from (Sultanate of sinner - Kingdom of Funj - the Blue Sultanate). Its reign lasted for more than three centuries but during this period it was not a stable reign and its influence continued to diminish ... eventually led to its weakness and fall. Therefore, the fall was not surprising, but there were factors and reasons that led to this and can be divided into political reasons: represented inForeign wars, especially in Abyssinia.Internal wars (Darfur).Internal revolutions (the revolution of Sigiriya - Taka - Shukria).Dispute over power and throne.Control over reign by the barbaric Ministry.Administrative and political imbalances. **Economic reasons**: factors have combined to change the economic situation on the commercial aspects in all state facilities due to the absence of security.

Social reason: The deterioration of political and economic

conditions led to the deterioration of social conditions in the structure and entity of the state, especially the deterioration and weakness of the sultans, which led to the loss of the prestige of the king.**Religious reasons**: The deterioration of the political, economic and social conditions in the influence of the religious leadership which formed a second authority having influential in the state.All these political, economic, social and religious reasons combined to break up the unity of the state and then fall into the hands of the armies of Ismael Pasha, who entered sinner in June 1821 without the slightest resistance declaring the end of the largest and greatest Islamic kingdoms in the history of Sudan and middle history.

المقدمة :

شهد تاريخ السودان في عصوره التاريخية المختلفة حقباً متعددة تركت آثارا حضاريةمهمة وكان من بين هذه الحقبة التاريخية المهمة قيام مملكة الفونج (سلطنة سنار).فكان ظهور سلطنة سنار من الأحداث المهمة التي أحدثت تغيراً في تاريخ السودان الوسيط باعتبارها أول وأكبر مملكة إسلامية ذات قوة ونفوذ وسلطان بعد تحالفها مع العبدلاب فكان نتيجة ذلك قيام صرح سياسي كبير أرسى دعائم القومية والثقافة الإسلامية في السودان والتي كانت لهاآثار عميقة في تشكيل الهوية للثقافة السودانية .

قامت سلطنة سنار من 1405م -1821م كأول دولة عربية إسلامية وواحدة من أهم الممالك الإسلامية في السودان واحتضنت سنار عاصمة الفونج حضارة وتراث هذه المملكة العريقة متعددة الثقافات والأعراف وبسطت نفوذها على السلطنات والأقاليم المحيطة بها.

وساهمت بدور كبير في نشر الإسلام والثقافة العربية والإسلامية كما استمر حكمها أكثر من ثلاثة قرون واستطاعت خلال هذه الفترة أن تحقق نوعاً من الوحدة فامتد نفوذهم من أربجي شمالاً حتى فازو غلي جنوباً وشرقاً حتى الحبشة وسواكن أما غرباً فقد اتسعت حدودهم تدريجياً حتى شملت كردفان .

ذكرت مملكة الفونج في المصادر التاريخية القديمة والحديثةبعدة أسماء منها (السلطنة الزرقاء – مملكة الفونج – سلطنة الفونج – السلطنة الزرقاء ––– مملكة سنار – سلطنة سنار) رغم الأهمية التاريخية والدور القيادي لهذه السلطنة إلا أن نفوذها كان في تضاؤل مستمر فلم يكن سقوطها مفاجئاً وإنما كانت هناك عوامل وأسباب أدت إلى انهيارها وسقوطها على يد جيوش إسماعيل بن محمد باشا عام 1821م .

أهمية البحث :

1- الأهمية التاريخية لسلطنة سنار باعتبارها أول وأكبر الممالك الإسلامية التي قامت في السودان وكان ظهورها حدثاً مهماً في تاريخ السودان ورغم ذلك فإن الأسباب والعوامل التي أدت إلى سقوطها لم تنل حظها من الدراسات .

2- دورها المهم في نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية فقد حملت لواء نشر الإسلام بالإضافة إلى اهتمامها بالعلم والعلماء والفقهاء .

3- الأهمية الجغرافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية الى سنار ودورها الريادي في هذه الجوانب عبر عصورها التاريخية واختيارها كعاصمة للثقافة العربية الإسلامية لعام 2017م .

أهداف البحث:

1. توضيح الدور الرائد الذي قامت به سلطنة سنار في تاريخ السودان
2. معرفة الأسباب والعوامل التي أدت الى سقوط سلطنة سنار
3. إلقاء الضوء على اثر تلك العوامل في ضعف نفوذ السلطنة من كل الجوانب

منهجية البحث :

منهج البحث الذي اتبعته هو المنهج الوصفي والتحليلي والمقارن أي محاولة مناقشة وتحليل وتقويم مشكلة الدراسة من خلال جمع المعلومات من عدة مصادر ويتضمن منهج البحث أيضا المنهج التاريخي وذلك بالاستفادة من المعلومات التاريخية وتحليلها .

أما المنهج التحليلي فالاستعانة به جاءت لوضع تحليل الحقائق المدونة في المراجع والمصادر .

أصل ونشأة سلطنة سنار:

أدت التغيرات التي حدثت في تاريخ السودان خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادية إلى تدهور الممالك المسيحية ومن ثم برز إلى مسرح

الأحداث السياسي قيام مملكة الفونج في أوائل (القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي) والتي يمثل قيامها حدثاً مهما في تاريخ السودان الوسيط. ولأهمية تلك الحقبة يجدر بنا أن نقدم عرضاً موجزاً .

نشأة الفونج :

الحديث عن نشأة واصل الفونج كان ومازال محور جدال بين كثير من الباحثين ويكاد يتفق المؤرخون حول المدى الزمني لقيام هذه المملكة والتي ارجع الكثيرون قيامها إلى مطلع القرن السادس عشر الميلادي عام .1504م .كان قيام دولة الفونج (سلطنة سنار) نتيجة جهد مشترك بين الفونج والعبدلاب فقد تم تحالف بين الفونج بزعامة عمارة دونقس مؤسس مملكة سنار وعبد الله جماع ومؤسس مشيخة العبدلاب[1].

ففي سنار بدأت البذرة الأولى بظهور أول الممالك الإسلامية والتي يرى البعض أنها البداية الحقيقة لتاريخ السودان كونها شهدت الانتشار الواسع للإسلام[2]. فلعبت دوراً مهما في نشر الثقافة العربية الإسلامية في السودان. وأورد ضيف الله في كتابه الطبقات عن قيام مملكة الفونج قائلاً (واعلم أن مملكة الفونج ملكة أرض النوبة وتقلبه عليها أول القرن العاشر سنه عشر بعد التسعمائة وحظيت مدينة سنار ملكها الملك عمارة دونقس وخطت مدينة اربجي قبلها بثلاثمائة سنة خطها حجازي بن معين) [3].من ذلك يبن صاحب الطبقات تاريخ نشأة الفونجوقد امتدت حدوها من سواكن شرقاً إلي النيل الأبيض غرباً ومن الهضبة الحبشية جنوباً إلي الشلال الثالث شمالاً وتقاسم ملوك الفونج والعبدلاب النفوذ في المملكة[4].

وكانت عاصمة عمارة دنقس الأولى في محل البلدة المعروفة ألان بأم حجار أو أم حجر والتي تقع عند الهضبة الحبشية وهي ذات أهمية جغرافية وتجارية[5].

يتضح من ذلك إن الموقع الأول لعاصمة سلطنة سنار كان في أم حجر إلى الجنوب الشرقي من سنار وبعدها انتقل عمارة دنقس إلى سنار ومن ثم كانت هناك أسباب دفعت عمارة دونقس لاختيار سنار كعاصمة جديدة لملكته .ويذكر الشاطر البصيلي إن هناك أكثر من سبب لاختيار سنار عاصمة ومقراً للحكم في مقدمتها موقعها الإقليمي الاستراتيجي الذي يكون المجال الحيوي الطبيعي لإدارةالبيت الحاكم وسيطرة موقع هذه المدينة على الطرق النيلية

والقوافل الأمر الذي أضفى عليها أهمية كبرى كمركز تلتقي فيها مختلف الطرق التجارية[6].

من ذالك يتضح اختيار سنار كعاصمة كان موفقاً حيث أضحت مركز إشعاع حضاري بفضل موقعها الجغرافي في قلب السودان كأكبر وأول دولة إسلامية فكان ذلك ميلاداً لنوع من الاستقرار والوحدة السياسية .

أصل الفونج :

الحديث عن تاريخ الفونج يقودنا إلي الحديث عن أصلها فقد صار جدال ونقاش بين كثير من المؤرخين لم ينته حول أصل الفونج ولعل ذلك يعزى الى غموض تاريخ هذه الفترة .

تعددت الآراء واختلفت الروايات حول أصل الفونج لأجل ذلك سنحاول طرح صورة مصغرة حول النظريات والآراء التي ذكرت حول أصل الفونج .

فهناك أراء تنسبهم إلى قبيلة الشلك وأراءأخرى تنسبهم إلى بني أميه ورأي ثالث ينسبهم إلى مملكة برنو ويمكن إجمال هذه الآراء في النظريات الآتية :

1- النظرية الأولى : ترجع أصلهاالى قبيلة الشلك وتولى قيادة هذه النظرية الرحالة جيمس بروس الذي زار السودان عام 1772م [7].

و وافقه في ذلك اركل الذي لجأ إلى إثبات الأصل الشلكاوي للفونج في مجلة السودان في رسائل ومدونات دافع فيها عن رأي بروس[8].

لكن نجد أن مكي شبيكة وقف معارضاً لراية قائلاً إن بروس لم يملك الأمانة والدقة في معلوماته[9].

2- أما النظرية الثانية : تذهب إلى أن أصلهم من بني أميه والشاطر البصيلي في تحقيقه لمخطوطة كاتب الشونة يبين هذه النظرية ويثبت أنها تنحصر في مصادر أولية وثانوية .من أهمها :-

رحلة داود روبين الذي زار عمارة دونقس في عاصمته الأولى ..

2- ماجاء في تاريخ أثيوبيا لمؤلفه لود لقس .

3- الروايات المحلية المتداولة[10].

وناصر هذه النظرية من المؤرخين المحدثين يوسف فضل الذي ذهب إلى أن أصلهم سلالة من بنيأميه الذين هربوا من ظلم العباسيين بعد سقوط دولتهم[11].

3- النظرية الثالثة : تذهب إليأنها من مملكة برنو وتولى قيادتها اركل الذي عدل عن نظريته الأولى في إثباته الى الأصل الشلكاوي والذي حدا به إلى

ذلك هو جمعه لروايات في مخطوطة عن تاريخ مملكة برنو وساق هذه الرأي في مجلة السودان في رسائل ومدونات في مقالته الثانية[12].

من هذا العرض التاريخي يتضح أن الباحثين مازالوا مختلفين حول أصل الفونج وبالتالي كان أصلهم باباً مفتوحاً في تاريخ السودان لم يصل فيه المؤرخين والباحثينالى رأي قاطع .

كما تسوق لنا مخطوطةكاتب الشونة (بأن ابتدأ أمر الفونج كان بمحل يعرف بلولو ثم انتقلوا إلى جبل موية ولما أراد الله إظهارأمرهم كان لهم أبقار وفيها ثور يسرى بالليل إلي غابة وكان بها جاريه تسمى سنار مقيمة على جرف وكان من جبل مويه وقطع أشجارها وشاهدوا دارها فنزلوا بعد أن قاتل العنج من عبد الله جماع عمارة وصار ملكهم وبقى ملك فيها وعبد الله جماع ملك على قرى) [13].

يتضح من النص أن بدء تاريخ الفونج حكام محوره جبل مويه في مكان يعرف بلولو حيث تجمع الناس حول عماره دونقس وتم تشييد المملكة التي كان لها صدى واسع في تاريخ السودان وأتخذ سنار عاصمة لهم .

الأسباب والعوامل التي أدت إلى سقوط سنار:

لم تكن سلطنة سنار تتمتع طوال عهدها في الرخاء والاستقرار والأمن فقد شهدت فترات من حكمها تدهوراً واضمحلالاً وبالتالي فإن سقوطها لم يكن مفاجئاً وإنما كانت هناك أحداث مهمة أدت إلى تفكك المملكة تدريجياً .

يمكن تقسيم هذه الأحداث إلى عوامل وأسبابهي:

1- سياسية .

2- اقتصادية .

3- اجتماعية .

4- دينية .

أولا : الأسباب والسياسية :

شهدت سلطنة سنار خلال فترات حكم ملوكها كثير من الأحداث السياسية التي أدت في النهاية إلى زوالها ويمكن تقسيم هذه الإحداث السياسية إلى عدة عوامل وأسباب وهي :

- الحروب الخارجية والداخلية
- الثورات الداخلية .(الشايقية – التاكا – الشكرية)
- النزاع والصراع حول السلطة (بين ملوك الفونج ووزراء الهمج)
- خلل النظام الإداري والسياسي .

أولا : الحروب الخارجية

سلطنة سنار كانت تتوسط ثلاثة قوى هي الحبشة في الشرق ودارفور في الغرب والعثمانيين في الشمال وكانت علاقاتها بين هذه القوى تتأرجح بين السلم والعداء ولعل ذلك يرجع إلى الأطماع السياسية التوسعية في أجزاء من أراضي السودان

حروبها مع الحبشة :

من أشهر حروب سلطنه سنار الخارجية حروبها مع الحبشة ويبين الشاطر البصيلي أن حالة التوتر بين الحبشة وسنار كانت تتباين في الظهور والاختفاء طوال فترة حكم الأباطرة من الأحباش والذين تولوا الحكم بعد النجاشي[14].

حيث سادت موجه من الحروب بينهم وبين الأحباش[15] ومن أشهر ملوك سنار الذين امتاز بالشهرة مع حروبه للحبشة الملك بادي أبوشلوخ في (1724م-1762م) الذي اشتهر بانتصاره على ملك الحبشة اياسو وكان قدجرد جيشاً جراراً عدته 30الف جندي ومن الجانب الآخر جمع الملك بادي جيوشه من المشاة والفرسان والتقى الجيشان في مكان يقال له الذكيات شرق الدندر وكان النصر حليف سنار[16].

كما حدث صدام آخر في أوائل القرن السابع عشر الميلادي عندما منح إمبراطور الحبشة السلطان عبد القادر بن اونسه حق اللجوء السياسي أثر طرده من العرش الأمر الذي كان أغضب السلطان بادي سيد القوم فخشي من تدخل الإمبراطور لصالح عبد القادر[17].وفي عهد السلطان بادي بن رباط حدثت مناوشات وحروب وبين البلدين على الحدود والتي استمرت من 1818م -1819م[18].

ولعل هذه الحروب كانت سبباً في انهيار الدولة السنارية اقتصادياً وبالتالي حدوث اضطرابات سياسية .

الحروب الداخلية :

حدثت حروب داخلية بين السلطنة السنارية والممالك المجاورة لها خاصة دارفور فقد كانت هذه الحروب لانقطع بين القبائل في داخل الدولة

بين سنار وجارتها دارفور [19] وتعتبر دارفور آنذاك من اقوي الدول المجاورة لسلطنة سنار واتسمت العلاقة بينهما بالسلم بالرغم من حالات العداء في بعض الأحيان حيث ظهر هذا العداء نتيجة لتدخل سلطنة سنار في إقليم كردفان للسيطرة على مملكتي تقلى والمسبعات مما أدي ذلك إلى نشوب الحروب بين الفور والفونج حول هذا الإقليم وبالتالي فإن زحف السلطنة السنارية على هذه المناطق قد شكل خطراً كبيراً على مصالح الفورفيها. [20]

أما الجانب الاقتصادي فقد اشتد التنافس التجاري بين سنار والفور حول مملكة تقلى وكانت الفور اقوي نفوذاً من سنار في السيطرة على إقليم كردفان فاتجهت تقلي إلى تحسين علاقاتها مع الفور الأمر الذي أديإلى قيام حروب عديدة بين الفور والفونج ومن أشهرها معركة قحيف 1447هـ -1751م والتي هزم فيها الفونج .وظلت كردفان مركزاً للصراع بين الفور والفونج فأصبحت تابعة للفور منذ انسحاب الفونج 1786م حتى دخول الجيش المصري عام 1821م .

وبالتالي يمكن القول أن الحروب الخارجية والداخلية قد أنهك قوى الدولة السنارية مما أدى الى ضعفها .

الثورات الداخلية :

بدأت أول مظاهر الاختلال في دولة سنار منذ بداية تاريخهم حيث توترت العلاقة بين الحليفين الفونج والعبدلاب عندما أحس العبدلاب بشيء من القوة فحاولوا الثأر لهزيمتهم في اربجي ويرجع أول صدام بينهم عندما حدث خلاف بين الشيخ عبد القادر (سليمان) والشيخ عجيب في بعض المسائل الدينية فأدي ذلك إلى حروب بينهم انتهت بانتصار العبدلاب وهزموا لكن تمكن الفونج في استرداد مافقدوه وهزموا العبدلاب الذين شقوا عصا الطاعة عن الفونج وقتل الشيخ عجيب في معركة كركوك بالقرب من الجريف شرق وعلى أثر تلك الهزيمة لم يتحرك العبدلاب ضد الفونج إلا في عهد الشيخ الأمين مسار الذي أخذ يتآمر مع الهمج ضد الفونج[21].ومثال لتلك الثورات الداخلية :-

ثورة الشايقية :

شجعت هزيمة العبدلاب أمام الفونج مشيخة الشايقية إن تتمرد ضدهم وذلك عندما طلب العبدلاب الشايقية دفع ماعليهم من ضرائب فاضطر علي ودعثمان ملك العبدلاب أن يحاربهم فهزمهم زعيم الشايقية حمد ودعثمان ومنذ

ذلك الحين استغل الشايقية بحكم بلادهم وأصبحوا يسيطرون على المنطقة الواقعة حول بلادهم فمثل انفصال الشايقية أول شرخ أصاب السلطنة السنارية.

ويؤكد ذلك البصيلي في أن الاشتباك الذي حدث مع الشايقية كان بسبب رفض عثمان لتسليم زعيم العبدلاب احد الخارجين عليه وذلك عندما التجأ إلى دار الشايقية واحتمى به[22].

نتائج ثورة الشايقية :

1- حدثت ثورة الشايقية على البلاط السناري في الوقت الذي كانت فيه سنار تعاني من اضطرابات وخلافات داخلية خاصة في الوضع الاقتصادي حيث انتشرت الأمراض والمجاعات واثر ذلك في كيان الدولة واضعف من قبضتها مما شجع الشايقية إلى السعي نحو الاستقلال.

2- أدى استغلال الشايقية عن سلطنه سنار بشعورهم بأن لهم قوة تفوق قوة جيرانهم فقد استطاعوا إضعاف الصلة التجارية بين دنقلا وسنار وبالتالي أصبحوا خطراً على طريق القوافل التجارية إلى تعبر صحراء بيوضة[23].

3- كما شكلوا خطورة على جميع القبائل التي تسكن في تلك المناطق بالغارات والسلب والنهب واستولوا على عدد من الخراج من الأرض.[24]

من خلال ذلك يتضح لنا أن وجود الشايقية كقوة متسلطة في الشمال كان له اثر كبير في إضعاف سلطنه سنار حيث أدى ذلك إلى عزل الفونج في الشمال عن الفونج في الجنوب أيضا ساهموا في إضعاف الاقتصاد في الشمال.

ولم يكن الشايقية فقط من تمرد على سلطنة سنار بل شهدت هذه الفترة تمرد عدد آخر من القبائل حيث خرجت قبائل التاكا في الشرق وقبائل الشكرية في الوسط[25].

حدث كل ذلك في الوقت الذي كانت فيه سلطنه سنار قد بدأ يتآكل نسيجها السياسي فلم يتحقق الانفصال في الشمال وحده بل شمل معظم أقاليم الدولة حيث أن الضعف اعترى كيان الدولة متمثلاً في قادتها وسلاطينها .

3- النزاع حول السلطة :

لم يكن سقوط سنار مفاجئاً فقد شهدت السنوات الأخيرة من عصرها صراعاً شديداً حول السلطة بين أفراد البيت الحاكم في سنار .

يعتقد بعض المؤرخين أن بداية انهيار المملكة بدأ في عصر السلطان بادي أبو شلوخ الذي بدأ حكمه بقوة بمساعدة وزيره دوكة ولكنه عدل

عن سيرته وصار ظالماً مما دعا أعيان المملكة للمناداة بعزله ودخل طرف أخر هو محمد أبو لكيلك زعيم الهمج الذي تزعم جماعة من المنادين بعزل بادي أبو شلوخ ومنذ ذلك الحين تحولت السلطة والنفوذ إلى أيدي وزراء الهمج الذين تغلبوا على الفونج[26]

وأدى ذلك إلى نزاع على السلطة بين أحفاد الوزير أبو لكيلك كبير الهمج وقائد جيوش السلطنة وبين سلاطين الفونج.. ويؤكد ذلك يوسف فضل قائلاً بأنه من نتائج خلع السلطان بادي أبو شلوخ وتنصيب ولده نصر أن انتقلت السلطة الفعلية في أيدي وزراء الهمج وصار الحال بالنسبة لخلفاء نصر من الفونج فكان لهم السلطة الاسمية وللوزراء الهمج السلطة الفعلية.

ومن ثم ظهرت سلسلة من الصراعات بين سلاطين الفونج والوزراء من الهمج [27]* فكان نتائج ذلك أن انتقلت زمام السلطة من الفونج[28] .

بعد وفاة الوزير أبو لكيلك 1776م-1777م حاول الفونج بقيادة السلطان عدلان التخلص من حكم الهمج بقيادة بادي ولد رجب ولكنهم لم ينجحوا وشهدت الأربعون سنه الأخيرة من حكم الفونج سلسلة من الحروب الأهلية والثورات الداخلية وعندما دخل إسماعيل بن محمد علي باشا بجيشه لم يجد مقاومة إلا من الشايقية في الشمال وخضعت له البلاد وبعد أن مزقتها الخلافات القبلية والصراع بين الفونج والهمج[29].

ومثال آخر للفوضى السياسية التي كانت سائدة في الفترة الأخيرة من حكم الفونج أن عدد السلاطين الذين تولوا السلطة في الفترة من 1778م إلى سقوط الدولة عام 1821م تسعة سلاطين[30].

وقد لخص كاتب الشونة مده حكم ملوك الفونج قائلاً (فمدة ملك الفونج الخاص ولهم فيه الحل والربط والقهر والقلبية والقتل حتى عام 1127هـ لهم مائتين وأربعة سبعين سنة ومدة ماخلص للشيخ محمد أبو لكيلك وذريته لغاية سنة 1236هـ -1821هـ فخالص المذكورين حتى حضور الدولة العثمانية 61سنة و8 شهور لأن انتزاع الملك منهم كان في شهر رمضان 1236هـ فصارت مدة ملكهم جميعاً وعمارتهم بسنار 335 سنة و 8 شهور) .

ويستمر كاتب الشونة في شرحه للحالة المتدهورة بسبب الصراع حول السلطة قائلاً (واندلعت نيران الفتنة واشتد أوراها وانقسمت البلد الى معسكرات تتطاحن في عراك مستمر وصارت مقاليد الأمور تنتقل من يد الى يد

في فترات متقاربة وأخذ الزعماء ينادي بعضهم بسلطان بينما ينادي الفريق الثاني بسلطان ثاني حتى بلغ عدد من تولى في الفترة من 1778م -1821هـ مايقارب من أربعمائة وثلاثين عام تسعة ملوك[31].

من خلال ذلك يتضح لنا أن اختلال النظام السياسي في السلطنة السناري حدث بسبب الصراع والنزاع حول السلطة أدى ضعفها ومن ثم سقوطها .

ولم يكن الخلل السياسي بسبب النزاع حول العرش فقط وإنما كانت هناك أسبابأخرى ... منها .

1. أن الدولة السنارية كانت تعتمد على نوعين من الجنوب أولهما المقاتلون التقليديون من كافة القبائل بالإضافة إلى أنه منذ عصر السلطان بادي أبو دقن بدأت الدولة تقلل الاعتماد على هؤلاء الجنوب واتخذت نوعاً أخرى وهم أسرى الحرب وكونت بهم الجيش[32]. ونتج عن ذلك صدام بين الجيش المكون من القوى التقليدية وبين الجيش المكون من الموالي فكان ذلك أحد مظاهر الخلل السياسي الذي بدأ ينخر في كيان الدولة وقد استغل وزراء الهمج هذا الخلل فاخذوا بزمام السلطة الفعلية للدولة[33].
2. أيضا اعتماد السلطان بادي أبو شلوخ على رقيق من النوبة عهد إليهم بالوظائف الهامة[34].ويتفق معه الفاتح بشير بقوله أن اعتماد السلطان بادي على الرقيق من النوبة الذين أتى بهم من جبال تقلي واركلإليهمبعض الوظائف مما اثار حفيظة كبار الفونج حيث فقد السلطان دعم أهله وحاشيته وبالتالي ساعد ذلك الهمج بقيادة أبو كليلك بالاستيلاء على المناصب المهمة في المملكة[35].وظل وزراء الهمج يسيطرون على الحكم كحكام فعليين حتى سقطت السلطنة.
3. إسنادا السلطة إلىالأقرباء حيث يشير إلى ذلك الشاطر البصيلي بقوله (بدأ الشيخ محمد أبو لكليلك بالعزل والتعين وفقاً لرغباته وتثبيتاً لسياسته التي تهدف إلى الاحتفاظ بالسلطة في أسرته حيث ترك لهم حرية التصرف دون معقباً فاستخفوا بالأمور) [36]ويمكن القول أن التقسيم الإداري والسياسي للسلطنة السنارية قد تميز بشيء من التعقيد لأنها ضمت مشايخ وأقاليم متباينة ومختلفة الأعراف والتقاليد وقد أدى هذا التقسيم في النهاية إلي لا مركزية الحكم فلن

تكن هناك حكومة مركزية قوية تسيطر على الدولة والدليل على ذلك أن السنوات الأخيرة من عمر السلطنة السنارية قد شهد كثير من الفتن والاضطرابات وسلسلة من الثورات والحروب الأهلية التي قادها زعماء القبائل ومن ثم انفصلت مشيخات عن جسم الدولة بسبب الضعف الذي اعترى كيانها كما أصبحت فترات الحكم بين الحكام قصيرة بسبب عدم الاستقرار السياسي وانتشار الفوضى وأدى ذلك إلى تدهور الحالة الاقتصادية وتعطل التجارة لغياب الأمن .

الأسباب الاقتصادية :

مثلت الأسباب الاقتصادية عاملاً مهماً أدى إلى سقوط وتجسد ذلك في بداية تاريخ السلطنة عندما اظهر الملك عمارة دنقس إلى السلطان سليم عندما اراد الزحف الى سنار معللاً له فقر دولته قائلاً (إني لا أعلم ما الذي حملك على حربي وامتلاك بلادي فأن كان لأجل تأييد دين الإسلام فأنا وأهل مملكتي عرب مسلمون وأن كان لغرض مادي فاعلم أن أكثرأهل مملكتي عرب بادية وليس لديهم شيء تجمع منه جزيه سنوية) [37]نجد هنا أن عمارة دنقس يشير إلى السلطان سليم أن بلاده ليس لديها ثروة اقتصادية تحمله على احتلالها. وسبب أخر يتمثل في المجاعة والغلاء الذي حدث في عصر الملك اونسه الثاني (1678م-1679م) فقد حصل غلاء شديد واشتد الجوع حتى أكلت الناس الكلاب وسميت هذه السنة سنة أم كلب وفيها تفشى مرض الجدري ومات خلالها خلق كثير[38] ويؤيد ذلك بيركهاردت قائلاً أن الجدري كان يفتك الناس وقد جاءهم خلالها مجاعة (1814م-1815) وازداد عدد الضحايا[39].

كما أصيبت سنار في نهاية عصر السلطان محمد أبولكيك بغلاء شديد وزيادة في فيضان النيل تسبب عنه التلف وانتشار الأمراض[40]وخاصة في عصر السلطان بادي السادس عام 1810م انتشرت الحمى الصفراء ومات بسببها خلق كثير[41].ومن أسباب التدهور الاقتصادي أن موارد السلطانة والزعامات المتحالفة معها كانت تقوم على نظام الجمهورية التجارية التي كان زعماؤها يقومون باحتكار التجارة في المنتجات المحلية بالإضافة إلى ذلك كان زعيم كل إقليم يقوم بجمع العشور والضرائب على يد رجاله وكان على المواطن أن يدفع نصيباً من زكاتهللفقيه المحلي مما زاد العبء الاقتصادي على كاهل القبائل والعشائر[42].

كما كان اغتصاب الهمج للسلطة وأصبح السلاطين رمزاً لا قيمة له في

إدارة شـؤون البـلاد كل ذلـك اثـر في النشـاط التجـاري وارجـع البـلاد إلى الحكـم الإقطاعـي[43].

كمـا أثـرت ثـورة الشـايقية عـلى أوضـاع الدولـة اقتصاديـاً بأضعـاف الصلـة التجاريـة بـين دنقـلا وسـنار وأصبحـوا خطـراً عـلى طريـق القوافـل التجاريـة التـي تعـبر صحـراء بيوضـة [44] بالإضافـة حـصر توزيـع الأراضي في الزعامـات المحليـة وكان هـذا العامـل سـبب في بـذور الفتنـة والتطاحـن بـين الأفـراد[45].

تضافـرت كل هـذه العوامـل ومـن ثـم أدتـإلى تغيـير في الأوضـاع الاقتصاديـة وأثـرت عـلى كل النواحـي التجاريـة في كل مرافـق الدولـة لغيـاب الأمـن .

الأسباب الاجتماعية :

تدهـور الأحـوال السياسـية والاقتصاديـة اثـر عـلى الأوضـاع الاجتماعيـة في كل مناحـي الحيـاة ابتـداءً مـن السـلاطين الذيـن أسرفـوا في حيـاة الـترف والملـذات في السـنوات الأخـيرة في عـصر السـلطنة وواضـح دليـل مـاكان مـن حالـة السـلطان بـادي الأحمـر (1692م/1716م) وابنـه السـلطان اونسـه الـذي تـولى الحكـم (1716م-1719م) فقـد انهمكـوا باللهـو واللعـب حتـى بلغـت أخبارهمأطـراف الدولـة بالصعيد[43].فـإن انهيـار وتـردى أوضـاع السـلاطين أدـإلى ضيـاع هيبـة الملـك وبالتـالي ضعـف سياسـة الحكـم وعجزهـا عـن إدارة شـؤون الدولـة .

ومـن الآفـات الاجتماعيـة التـي كانـت متفشـية نظـام ولايـة العـرش والتنافـس بـين الزوجـات مـن بنـات عـين شـمس فـكان مـن التقاليـد السـائدة أن تكـون زوجـة السـلطان الشرعيـة مـن بيـت عـرف ببيـت عـين شـمس وانحـصر هـذا البيـت مـن سـلالة الاونسـابالتي منهـا السـلطان نـول [44]

الأسباب الدينية :

كانـت الحالـة المتدهـورة للسـلطنة السـنارية سياسـياً واقتصاديـاً واجتماعيـاً فرصـة سـانحة لازديـاد نفـوذ رجـال الديـن مـن الفقهـاء وسـيطرتهم عـلى العامـة ومما زاد في تعقيـد الأمـور أن هـذه الزعامـة الدينيـة كونـت سـلطة ثانيـة لهـا نفوذهـا [45].

في الوقـت الـذي أهمـل فيـه السـلاطين الاهتمـام بقـوة الزعامـة الدينيـة ففـي عـصر السـلطان بـادي السـادس بـن طبـل آخـر ملـوك السـلطنة تـوفى الفقيـه حجـازي في سـجنه عطشـاً[46]ومثال آخـر تـوفى في عـصره أيضـا العالـم الفاضـل محمـد نوريـن الفقيـه ضيـف اللـه بالحلفايـه وهـو صاحـب كتـاب (طبقـات الأوليـاء) بالحمـى الصفـراء التـي انتـشرت في أيامـه.

كما تميزت فترة السلطان بادي الأحمر بدخول البعثات الأوربية الدينية في طريقها إلى الحبشة وكانت سنار مركزاً للصراع والدسائس التي يحيكها كل فريق من هؤلاء المبشرين لتعطيل منافسة من له صلة في السفر إلى الحبشة[47].

تضافرت كل تلك الأسباب والعوامل فادت إلىإضعاف السلطنة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ودينياً وتفكك وحدتها[48].وعند مجي إسماعيل باشا عام 1821م وجد المملكة تلفظ أنفاسهاالأخيرة ولما شارف عند حدود سنار خرج إليه السلطان بادي بن طبل مقدما فروض الولاء والتسليم فدخل إسماعيل باشا سنار في 12 يونيو 1821م معلناً نهاية اكبر وأعظم الممالك الإسلامية التي شهدها تاريخ السودان الوسيط .وهكذا طويت صفحة مشرقة من تاريخ السودان تحقق فيها نوعاً من الوحدة بالإضافةإلىإرساء وترسيخ الثقافة العربية الإسلامية نتيجة إلى الدور الذي لعبه سلاطين سنار في نشر الإسلام .

ورغم كل ذلك ساهمت كل تلك الأسباب والعوامل بشكل قوى في إضعافها.. ومن ثم سقوطها ...

الخاتمة:

كان قيام سلطنة سنار كأول واكبر الممالك الإسلامية في السودان مثل حدثا مهما نتيجة للتغيرات التي حدثت في تاريخ السودان إبان تلك الحقبة فقد حملت لواء نشر الإسلاموإرساء قواعد الثقافة العربية الإسلاميةبالإضافة الى اهتمامها بالعلم والعلماء نتج عن ذلك حضارة عريقة مدت جذورها حتى وقتنا الحالي ، وبالرغم من عظمة هذه المملكة إلاإن سنوات حكمها شهدت تدهورا في نفوذها في كل المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية مما أدي في النهاية الى زوالها وسقوطها على أيدي جيوش إسماعيلباشا عام 1821م معلنا نهاية حكم السلطنة السنارية

النتائج

أسهمت عوامل سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية، ودينية في ضعف نفوذ السلطنة السنارية ومن ثم أدت إلى سقوطها عام 1821م ويمكن تلخيص النتائج لهذه الدراسة في :

1. الحروب الخارجية والداخلية بالإضافة إلي الثورات التي أنهكت قوة الدولة ومن ثم تفككت وحدتها بانفصال عدد من المشايخ والقبائل عن جسم الدولة (ثورة الشايقية) فكان انفصالها أول شرخ في جسم

الدولــة .

2. النــزاع والــصراع حــول الســلطة خاصــة بــن أحفــاد الوزيــر محمــد أبولكليـك وأحفـاد السـلاطين أدىإلى قيـام حـروب أهليـةو ضعـف سياسـة الحكـم وفشـلها في إنشـاء حكومـة مركزيـة قويـة فانفـرط عقـد وحـدة المملكـة. بلاضافـة الى سـيطرة الـوزراء الهمـج عـلى الحكـم وأصبـح الملـوك والسـلاطين ألعوبـة في أيديهـم فانفلـت زمـام السـلطة مـن ملـوك الفونـج.
3. الخلـل والفسـاد الإداري وتمـادي بعـض السـلاطين في جبروتهـم ومثـال السـلطان بـادي أبـو شـلوخ الـذي أكثـر مـن اعتمـاده عـلى الرقيـق مـن النوبـة وعهـد إليهـم بالوظائـف الهامـة في الدولـة إسراف بعـض السـلاطين في حيـاة الـترف والملـذات.
4. تدهور الأحوال الاقتصادية أدي إلى انتكاس التجارية لغيابالأمن.
5. ضعـف مكانـة رجـال الديـن في السـنوات الأخيرةبإهمـال الملـوك للعلمـاء والفقهـاء .

التوصيات :

1. فتـح المجـال لمزيـد مـن الدراسـات التاريخيـة حـول هـذه الحقبـة التاريخيـة الهامـة.
2. إقامـة النـدوات والمؤتمـرات حـول الأسـباب التـي أدت إلى سـقوط العواصـم الإسـلامية الهامـة .
3. تسـليط الضـوء علىأسـباب وتدهـور سـلطنة سـنار الإسـلامية لمـا لهـا مـن اثـر في تغيـير مجـرات الأحـداث التاريخيـة في المنطقـة .
4. عـلى الصعيـد السـياسي يجـب الاسـتفادة مـن الأسـباب التـي تـؤدي الى زوال الـدول والعواصـم بمـا يحقـق المصالـح العامـة
5. دعم القضايا السياسية في الدول بالاهتمام بتطوير المجال الاقتصادي

المصادر والمراجع:

(1) ابـن ضيـف اللـه : محمـد النـور : كتـاب الطبقـات في الأوليـاء والعالمـين والعلمـاء والشـعراء في السـودان – تحقيـق يوسـف فضـل حسـن – الخرطـوم 1971م .

(2) احمـد بـن الحـاج عـلي : كاتـب الشـونة : مخطوطـة كاتـب الشـونة في تاريـخ السـلطنة السـنارية وازوراره المصريـة – تحقيـق الشـاطرالبصيلي عبـد الجليـل – القاهـرة 1961م .

(3) يوسـف فضـل حسـن : مقدمـة في تاريـخ الممالـك الإسـلامية في السـودان الشرقـي 1450م-1821م – الخرطـوم – 1972م.

(4) الشـاطر البصيـلي عبـد الجليـل : معالـم تاريـخ سـودان وادي النيـل مـن القـرن العـاشر الميـلادي إلي القـرن التاسـع عـشر الميـلادي – مكتبـة معهـد الدراسـات السـودانية – كليـة الأدب – نـشر مكتبـة الشريـف الأكاديمـي للنـشر والتوزيـع – 1955م.

(5) الفاتـح بشـير الوسـيلة الماحـي : تاريـخ سـلطنة الفونـج الإسـلامية – الخرطـوم – مكتبـة السـودان – 1979م .

(6) بركهـا ردت : جويـة يـوس – رحـلات في بـلاد النوبـة – 1798م-1817م – ترجمـة فـؤاد انـدوراسي القاهـرة – 1959م .

(7) مكـي شـبيكة : مملكـة الفونـج الإسـلامية – القاهـرة – معهـد الدراسـات العربية العالمية -1963م .

(8) مكي شبيكة : السودان عبر القرون – بيروت – 1962م

(9) نعـوم شـقير : تاريـخ السـودان – تحقيـق إبراهيمأبوسـليم -1981م – دار الجبيـل – بـيروت .

المراجع الإنجليزية :

1. James Bruce –Travels Told scorer the sources. of the Nile Edinburgh -1805.
2. Ark ell = Sudan Notes and Record: Fung orangesVole –XV-1932

المصادر والمراجع:

(1) بابكر فضل حسين – مظاهر الحضارة في دولة الفونج الإسلامية – الخرطوم – منشورات الخرطوم عاصمة الثقافة العربيةالإسلامية (2004م ، ص3)

(2) يوسف فضل حسين – مقدمة في تاريخ المالك الإسلامية في السودان الشرقي 1450م 1821-م الخرطوم 1972م–ص5

(3) مكي شبيكة – مملكة الفونج الإسلامية – القاهرة – معهد الدراسات العربية العالمية – 1964م –ص 25

(4) ابن ضيف الله – كتاب الطيبات في الأولياء والعالمين والعلماء والشعراء – تحقيق يوسف فضل – الخرطوم 1971م ص 6 --ص90

(5) الشاطر البصيلي – معالي تاريخ سودان وادي النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي - مكتبة معهد الدراسات السودانية - كليةالآداب (مكتبةالشريف الأكاديمي لنشر والتوزيع 1955م) ص23-24

(6) المصدر ا نفسه – ص 51

(7) James Bruce – Travels to Discover the Sourced of The live –Edinburgh -1805 p-16

(8) (8) Arekeel : Sudan it Noted and Record : Fingering Vole –yv-1932 –Pare 15- P2002001

(9) (مكي شبيكة – السودان عبر القرون – بيروت – 1962م ص 52-

(10) احمد بن الحاج على كابت الشونة – مخطوط كابت الشونة السارية والإدارية تحقيق الشاطر البصيلي– القاهرة -1961-- ص 28

(11) يوسف فضل حسن : الممالك الإسلامية في السودان الشرقي .ص14

(12) (1James Bruce – Travels to Discover the Sourced of The live – Edinburgh -1805 p-540

(13) احمد بن الحاج علي – تحقيق كتاب الشونة -- الشاطر البصيلي ص6-7

(14) الشاطر البصيلي : معالم تاريخ سودان وادي النيل ص11-

(15) يوسف فضل حسن : الممالك الإسلامية في السودان الشرقي ص 79

(16) نعوم شقير : تاريخ السودان تحقيق محمد إبراهيم-دار الجيل بيروت – 1981م – ص 107-108

(17) يوسف فضل : الممالك الإسلامية في السودان الشرقي – ص79
(18) المصدر نفسه ص 70
(19) يوسف فضل – مقدمه في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي –ص 122
(20) لمصدر نفسه ص69
(21) يوسف فضل – مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية –ص82
(22) يوسف فضل : مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية ص63
(23) مكي شبيه : محكمة الفونج الإسلامية – ص 73 – القاهرة 1963م
(24) بوركهادر : جون يوسف : جون لويس بوركها رد رحلات في بلاد النوبة 1798م 1817-م .ص22
(25) الفاتح بشير الوسيلة الماحي – تاريخ سلطنه الفونج الإسلامية – الخرطوم – مكتب السودان – 1979م – ص21
(26) يوسف فضل : مقدمة تاريخ الممالك الإسلامية –ص59
(27) *الهمج :ظلوا نحو قرنين ونصف تحت حكم الفونج ويرى البعض إنهم خليط من النوبة والعرب (مكي شبيكة جمله : الفونج القاهرة – معهد الدراسات 1994م ص 75
(28) يوسف فضل : مقدمته في تاريخ الممالك الإسلامية –ص 64
(29) احمد بن علي – كاتب الشونة –ص115
(30) الشاطر البصيلي – تاريخ سودان وادي النيل –ص55
(31) المصدر نفسه – ص 116
(32) يوسف فضل – مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية – ص59
(33) المصدر نفسه –ص6
(34) المصدر نفسه –ص8
(35) الفاتح بشير الوسيلة – تاريخ سلطنة الفونج –ص2
(36) الشاطر البصيلي : معالم تاريخ سودان وادي النيل –ص 113
(37) نعوم شقير / تاريخ السودان – تحقيق إبراهيمأبو سليم 1981 – دار الجبلي – بيروت –ص100
(38) المرجع نسفه –ص 106
(39) الشاطر البصيلي – معالم تاريخ وادي النيل –ص181-182

(40) الشاطر البصيلي : معالم تاريخ وادي النيل –ص115
(41) نعوم شقير : ص 122
(42) الشاطر البصيلي – معالم سودان – ص 122 – ص128
(43) المرجع نفسه –ص 118
(44) مكي شبيكة : مملكة الفونج الإسلامية –ص73
(45) الشاطر البصيلي – معالم تاريخ سودان وادي النيل – ص 120
(46) نعوم شقير : تاريخ السودان : تحقيق محمد إبراهيم – أبو سليم – ص 107-106
(47) المصدر نفسه : ص118
(48) نعوم شقير : تاريخ السودان –ص1
(49) الشاطر البصيلي – معالم تاريخ سودان وادي النيل –ص18